christianlib.com

بيت التكريس
لخدمة الكرازة

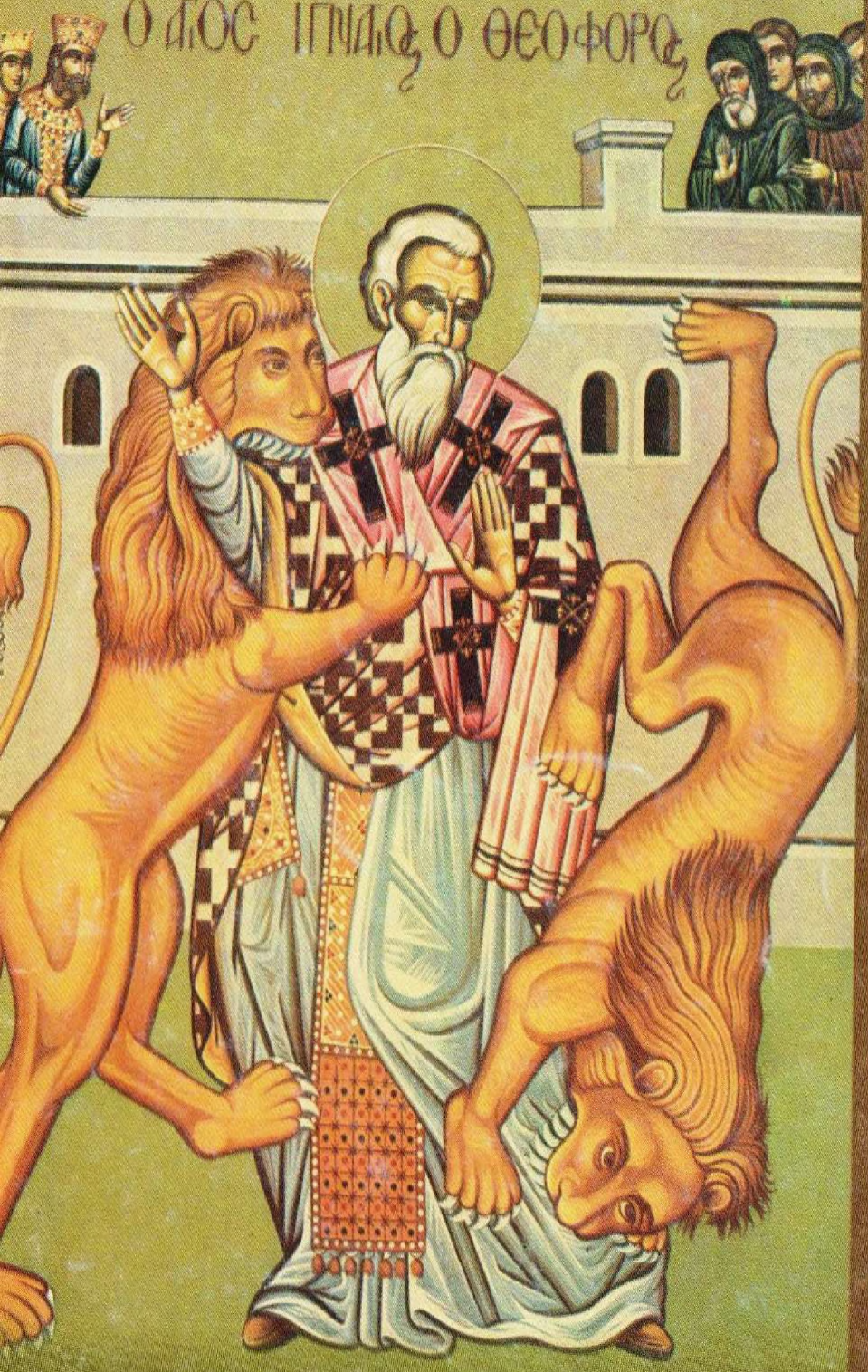

الشهداء بذار الكنيسة

للأسقف كاليستوس وير

coptic-books.blogspot.com

بذار الكنيسة
الاستشهاد دعوة للجميع

" أوقات السلام فرصة للشيطان، لأنها تسلب من المسيح شهادته وتسلب من الكنيسة مجدها " (بول أفدوكيموف)

انتصار الأرثوذكسية :

فى تقويم الكنيسة الأرثوذكسية[1]، توجد مناسبتان يحدث فيهما تركيز شديد الأهمية بشكل خاص على الاستشهاد؛ المناسبة الأولى هى "عيد انتصار الأرثوذكسية"، فى الأحد الأول فى الصوم الكبير[2]. هذا هو تذكار لانتهاء حرب الأيقونات سنة ٨٤٢ ــ ٨٤٣م. فى هذا اليوم تُحمل الأيقونات فى دورة احتفالية، وفيه يحرم الهراطقة، ويرتل تمجيد "تذكار أبدى" تكريمًا للذين دافعوا عن الإيمان بفرح وتعييد فى وسط الصوم. وفى "انتصار الأرثوذكسية" هذا يوجد ذكر خاص للآلام والجهادات التى احتملها القديسون، وإلى الاضطهادات، والتعذيب والنفى الذى واجهوه لأجل المسيح.

" أذكر يارب التعييرات والإهانات التى أصابت عبيدك... وإلهنا يذكر الضيقات والتحقير الذى احتمله القديسون مع

---

[1] يقصد كنيسة الروم الأرثونكس.

[2] بحسب ترتيب الطقس البيزنطى.

المسيح".

وهكذا فإن عيد "انتصار الأرثوذكسية" يصير عيدًا لتكريم الشهداء والمعترفين. إن "الانتصار الوحيد" الذي يمكن أو ينبغي للكنيسة على الأرض أن تتوقعه هو الاستشهاد.

ونفس هذه الحقيقة يتم التأكيد عليها فى "أحد جميع القديسين" الذى يقع فى الكنيسة الأرثوذكسية بعد أسبوع من عيد الخمسين. وهكذا ترى أن العيدين مرتبطان برباط وثيق. " فجميع القديسين " مخصص للنتائج التى يحققها حلول الروح القدس فى حياة الكنيسة. وأنه لأمر له مغزى أن الترانيم المحددة لعيد جميع القديسين، تشير بوضوح إلى الاستشهاد:

بدم شهدائك ، أيها المسيح إلهنا،
تتزين كنيستك فى كل العالم،
كما بالأرجوان والكتان الرقيق..

مثل باكورة ثمار الطبيعة نحو بستانى الخليقة
فإن الأرض المسكونة تقدم لك، يارب،
الشهداء حاملي الإله...

وهكذا فإن عيد " جميع القديسين " يبرهن فى الواقع أنه عيد "جميع الشهداء". **فالقديس الذى بلا منازع هو الشهيد.**

إن مسيحيي العصر الحاضر عندهم بالتأكيد سبب خاص للتأمل فى أهمية الاستشهاد، لأن القرن الذى انتهى منذ قليل (القرن العشرين)، كان قرنًا متفوقًا من جهة كونه عصر الشهداء. ففى العشرين سنة التى فصلت بين الحربين العالميتين قد مات عدد ضخم جدًا من المسيحيين بسبب إيمانهم أكثر من العدد الذي استُشهد خلال الـ٣٠٠ سنة التى تلت صلب المسيح. فالمحنة التى اجتازها مؤمنو القرن العشرين ــ فى الاتحاد السوفيتي بين ١٩١٧ و ١٩٨٨، وفى إثيوبيا فى الفترة من ١٩٧٤ ــ ١٩٩١، ونحن لا نذكر هنا سوى مثلين فقط من حالات كثيرة ــ تجعل الاضطهاد الذى حدث فى الكنيسة الأولى فى الدولة الرومانية، حتى تحت حكم دقلديانوس، يبدو نسبيًا خفيف وإنساني.

اختبار يوليا بوسوبر Iulia de Beausobre:

ما معنى الشهيد؟ وما هو الذى يحوّل الألم من كونه قوة هدامة إلى قوة خلاّقة؟، أو ما الذى يحوّل الموت نتيجة استعمال العنف إلى فعل شهادة، أو الذى يحوّل إخفاق العدالة إلى ذبيحة فادية؟.

الجواب تقدمه لنا سيدة مسيحية روسية، هى "يوليا بوسوبر". فبينما هى فى أحد الأيام فى أواخر ١٩٢٠، وكان زوجها قد اعتقلته المخابرات السوفيتية ولم تكن هي قد اعتُقلت بعد، كانت

تقوم بإعداد لفة طعامه الأسبوعية لكي تسلمها فى السجن. شعرت عندئذٍ أن إحساسًا بعدم الرجاء يغمرها؛ فزوجها يتألم، وحياتها هى وكل أولئك الذين حولها تبدو بلا أى معنى، ولا جدوى لها. وسألت نفسها: "وإلى أين سننتهى"؟ وفجأة بينما كانت تسير من غرفة إلى أخرى، شعرت بلطمة على قفا رقبتها، وسمعت ما تصفه هى بأنه "كلمات بلا صوت من شخص آخر". وكانت هذه الكلمات بداية فجر جديد فى حياتها.

" طبعًا الاستشهاد ليس منفعة أرضية لأي واحد منكم. هو يستطيع فقط أن يشل أجسادكم ويحطم نفوسكم. ولكنى سأشارك فى كل ثقل من أثقالكم الأخيرة التى تشلكم وتحطمكم. وبقوة حرارة الحنان التوليفية سوف أعرف الرعب الكامل الناتج عن التحطيم المتعمد الذى يقوم به ضدكم أناس من جنسكم البشرى. سوف أعرف ثقل حملكم بأن أحمله معكم، ولكن بفهم أعظم من الفهم الذى يمكن أن يكون عندكم. إنى أريد أن أحمله. أنا أحتاج أن أعرفه. وبسبب تجسدي ومعموديتكم فلا يوجد طريق آخر ــ إذا كنت توافقين"[٣].

يوجد أمران هنا لهما أهمية خاصة: **التأكيد على القبول الإرادي، والإصرار على المشاركة والتضامن.**

[3] Constance B. Smith, Iulia de Beausobre: A Russian Christian in the West (London D. Long & Todd 26-27, 1943).

" إذا كنت توافقين"، يقول ربنا لـــ "يوليا".

المسيح، الشهيد الأول تقدم إلى موته بإرادته، والشهيد كـــalter Christus، أى "كمسيح ثانى" مدعو لأن يفعل نفس الشيء. ومطلوب منا أيضًا من جانبنا أن "نقبل الآلام" إراديًا حتى إن لم تكن هذه هى إرادتنا أصلاً. الأمر يحتاج إلى تكريس النفس؛ وهذا هو ما يحوّل الشهيد من شخص يتألم ويموت إلى شخص "يحمل شهادة". علينا "أن نحمل صليبنا"، فالصليب لا يكون مفروضًا علينا بإجبار خارجي. الألم يصير خلاّقًا والموت يصبح ذبيحة إن كنا فقط نقبلهما طوعيًا.

ويقول المسيح أيضًا: "سأشارك". الألم يصير خلاقًا، والموت يصبح ذبيحة بمجرد أن نصير واعين بأن المسيح إلهنا نفسه يتألم معنا وأنه بواسطة هذه المشاركة الإلهية فى الألم، نتمكن نحن أنفسنا بدورنا أن نتألم مع الآخرين، وفى الآخرين ولأجلهم.

" بسبب تجسدى..." بميلاده فى بيت لحم، فإن المسيح يدخل فى كل ملء الحياة البشرية، ويشترك فيها اشتراكًا كاملاً وبدون أى تحفظات. ثم فى جثسيماني والجلجثة يذهب أكثر من ذلك، إذ يشترك فى كل ملء الموت البشرى، وأيضًا يشترك فيه اشتراكًا كاملاً وبدون أى تحفظات. إذ هو يحمل أحزاننا

ويتحمل أوجاعنا، فإنه يوّحد نفسه معنا تمامًا فى عزلتنا ويأخذ أتعابنا على نفسه. "بسبب معموديتكم.." فالمسيحي إذ يعتمد لموت المسيح ــ وهكذا أيضًا لقيامته (رو٦:٣ــ٥) ــ فإنه بالمثل هو مدعو أن يحمل أحزان وأتعاب الآخرين فى اتحاده بالمخلّص. " *احملوا بعضكم أثقال بعض وهكذا تمموا ناموس المسيح*" (غلا٦:٢).

فلننظر بفحص أعمق فى هاتين النقطتين:

الموافقة الإرادية :

الأمر الأول، إذن، الذي يميز بين الاستشهاد والقتل أو سقوط العدالة هو عنصر الموافقة الإرادية. "إذا كنت توافقين". ممارسة الإرادة أمر لازم. الاستشهاد لا يعنى مجرد الألم بل يعنى **تقديم الذات**. الشهيد أو الشهيدة يقدم أو تقدم نفسها، وبهذا فهو يحوّل الموت إلى "ذبيحة"؛ لأن فعل "**يذبح**" أو "**يقدم ذبيحة**" يحمل بالضبط معنى " أن تقدس شيئًا بتقديمه إلى الله "، سواء كان عن طريق الموت أو بطريق آخر. الشهيد هو الذي يختار أن يقول فى وقت الأزمة "*هاأنذا*" (إش٦:٨)، "*هاأنا أجيء لأفعل مشيئتك، يا الله*" (عب١٠:٧). الشهداء الحقيقيون لا يجتذبون عقابًا لأنفسهم بأية إشارة فيها إثارة عدوانية متعمدة، كما أنهم أيضًا لا ينطقون بالكذب أو يجرون هاربين.

كل هذا يظهر بوضوح فى مثال المسيح نفسه: "*أنا أضع نفسي عن الخراف*" (يو١٠: ١٥، ١٨)، فهو "*أطاع حتى الموت موت الصليب*" (فى٢: ٨). فهو ليس مجبرًا، وبكلمات توماس الأكوينى: "حينما فعل بالقدر الذى حسبه هو نفسه كافيًا، عندئذٍ جاءت ساعته ــ ليس عن اضطرار بل عن إرادة، ليس نتيجة شرط بل بسلطان"[٤]. والطابع الإرادي الحر لاستشهاد المسيح يتضح فوق كل شئ في بستان جسثيماني. وكما يقول عنه باسكال: " يسوع يعاني على الصليب العذابات التي يضعها عليه الآخرون، ولكن فى البستان هو يعاني الآلام التى يضعها هو على نفسه"[٥]. فإن كان المسيح فى لحظة معاناته فى البستان " *حزينًا حتى الموت*"، وكان عرقه يسقط على الأرض "*كقطرات دم*"، فهذا بسبب أنه كان حرًا، لأنه فى تلك اللحظة كان فى مواجهة اختيار. فإن تكلمنا بشريًا نقول إنه لم يكن ينبغي أن يموت؛ كان ممكنًا أن ينسحب ويهرب. ولكنه بكل حرية، وعن قصد وتعمد هو يحتمل تكلفة لا تُقدر بثمن، فهو يسلم مشيئته لتتوافق مع مشيئة الآب: "*ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت*" (مت٢٦: ٣٩). وهكذا بفضل هذا الاختيار الإرادي الحُر الذى جرى فى البستان، فإن آلامه وموته صارا فعل تقدمة للذات وذبيحة فادية.

---

[4] Charles Williams, The Passion of Christ, London 1939 مقتبسة فى

[5] Pensees 919 (553).

ونفس عنصر الاختيار الحر يظهر مرة تلو مرة فى قصص الشهداء. في رواية T.S. Eliot " قتل فى الكاتدرائية Murder in The Cathedrial)، حينما يصل الفرسان الأربعة كان هناك فرصة من الوقت لـــ " توماس بيكت " أن يهرب. إذ قال له الكهنة " يا سيد، إنهم مقبلون"، "أسرع يا سيد". لكن رئيس الأساقفة يرفض: وهو يصر قائلاً: "أرفع المزلاج وافتح الأبواب!.. إني أبذل حياتي.. أنا هنا.. مستعد أن أتألم وأبذل دمي". لاشك أنها صدى مقصود لكلمات الرسول: " *أنا الآن أُسكب سكيبًا*" (٢تي٤:٦). وهناك أمثلة أخرى كثيرة تأتى إلى ذهننا: القديس بوليكاربوس فى سميرنا حوالي سنة ١٥٥م الذي كان يمكنه أن يهرب إلى مكان آخر ولكنه رفض قائلاً: "لتكن مشيئة الله"[٦]. والشهيد حديثًا إلياس الحلاق فى كالاماتا فى سنة ١٦٨٦م، الذي كان يمكنه أن يظل مختبئًا "بجبل آثوس"، لكنه اختار أن يعود إلى الموضع الذي كان معروفًا فيه لكي يكفر عن خطية ارتداده عن الإيمان بتقديم نفسه للموت باختياره[٧]. فيفيان ردليش Vivian Redlich فى غينيا الجديدة فى الحرب العالمية الثانية، الذى أُعطيت له الفرصة للخروج قبل وصول اليابانيين ولكنه اختار

[6] Martyrdom of Polycarp 7:1.
[7] The New Martyrs of the Turkish Yoke, Seattle, St. Nectarios Press 1985 USA.

أن يظل فى موقعه، والأم ماريا (سكوبتسوفا) Maria (Skobtsova) في رافنزبروك فى عشية الفصح لسنة ١٩٤٥، التي أُخذت محل سجينة أخرى ومضت لتموت بدلاً منها فى غرفة الغاز (أيام النازي). كل واحد من هؤلاء يمكن أن يؤكد ــ بطريقته أو بطريقتها ــ مع يسوع المسيح، " ليس أحد يأخذ حياتي مني، بل أضعها أنا من ذاتي ".

الاختيار الحر فى الحياة الرهبانية:

ويلزم أيضًا اختيار إرادي حر فى الحياة الرهبانية، التى تكون كبديل للاستشهاد فى أوقات السلام حين لا يوجد اضطهاد خارجي. يتحدث القديس بطرس الدمشقي فى هذا الصدد عن " الموت الاختياري " للراهب: فعند لبس الإسكيم ــ وهي اللحظة الحاسمة فى صلاة التكريس الرهباني ــ يضع رئيس الدير المقص على الإنجيل وهو يقول لطالب الرهبنة، " خذ المقص وأعطني إياه". وحينما يفعل الراهب هكذا، يضع الرئيس المقص على الإنجيل ثانية مكررًا نفس الكلمات. وهذا يتكرر لثالث مرة، وبعد ذلك يتقدم الرئيس ليقطع شعر الراهب المبتدئ بالمقص. ولكي يؤكد رئيس الدير على معني هذا الطقس الثلاثي يقول: "لا أحد يجبرك أن تلبس ثوب الرهبنة. أنظر هاأنت قد اخترت بإرادتك الحرة أن ترتدى هذا الزى". لم يأخذ أحد من الراهب حرية اختياره لكن هو نفسه قدمها للمسيح.

وهكذا يتضح بدون أدنى شك أن دعوة الاستشهاد لا تُفرض بل تُقبل بحرية.

الدعوة للجميع:

وما قلناه حالاً عن المسيح، وعن الشهيد، وعن الراهب، يصدق أيضًا إلى حد ما على كل مسيحي بدون استثناء. فكل واحد منا مدعو فى نقطة ما من الحياة أن يواجه خيبة أمل، أو فقدان من يحبهم، أو آلام جسدية ونفسية. ففي هذا العالم الساقط لا مفر من هذه الآلام. والسؤال الحاسم هنا هو كيف نواجه هذه الآلام. فبمواجهة الآلام بطريقة إيجابية، بقبولها طوعيًا، يمكننا أن نجعل الألم خلاقًا. الألم فى ذاته شر. هو ليس جزءً من خطة الله الأصلية لخليقته: لقد خلقنا ليس للحزن بل للفرح ــ كما يقول القديس يوحنا الدرجي ــ ليس للبكاء بل للضحك[٨]. إن تأثير الألم على بعض الناس هو تأثير مدمر تمامًا، لا يؤدي سوى إلى المرارة واليأس. لا نستطيع أن نقول إن الألم بهذه الطريقة هو بركة من الله. ولكن ــ برحمة الله ــ فإن ما هو شر في ذاته يمكن أن يتحول إلى خير. وكما تصرّ " يوليا بوسوير" ــ فى أفضل كتبها ــ "الألم الخلاّق Creative suffering" ــ فإن الألم يمكن أن يكون وسيلة. يمكن أن ينتج عنه شئ (نافع).

[٨] الدرجة ٧.

الأمر كله يتوقف على الموقف الداخلي للشخص المتألم، والأشخاص القريبين منه أو منها. يمكن أن نقابل الألم بغيظ وبتحدٍ وتمرد، وفى هذه الحالة فإنه سيؤدي إلى ملاشتنا روحيًا. ومن الجهة الأخرى يمكن أن نقابل الألم باستسلام سلبي، وفى هذه الحالة فإنه قد يعمل مثل فعل الحامض، إذ يؤدي إلى صدأ وتآكل شخصيتنا، ويجعلنا بلا شخصية، أموات أخلاقيًا. أو قد نقابل الألم بإيجابية؛ أى بروح المحبة؛ وفى هذه الحالة يمكن أن يُقبل الألم، ويصير تقدمة، ومن خلال هذه التقدمة فإنه يتجلى. بالتأكيد إن الأمر ليس سهلاً، ولكن هذا هو طريق المسيح. كما قال لـــ "يوليا"، " إذا كنت توافقين". وجود أو غياب هذه الموافقة هو الذى يصنع كل الاختلاف.

التضامن:

الخاصية الثانية للشهادة التي تميزها عن أي قتل ، هي وجود المشاركة أو الشركة مع الآخرين، وهي ما يسميه شارلز وليامز "الحب البديل"، "التلازم العميق" أو "طريق التبادل"[9]. لقد أكدّ المسيح لـــ " يوليا بوسوبر " قائلاً: " إني سأشارك في كل ثقل من أثقالكم " وتحدث إليها عن " حرارة الحنان التوليفية". نحن نصير شهداء مع المسيح " الشهيد الأول"، "الإنسان الذى

[9] "The Image of the City" by Charles Williams, ed. Anne Ridler, London 1958.

عاش للآخرين"، حينما نوحّد آلامنا مع آلامه بالمحبة، وهكذا نوحّد آلامنا مع آلام كل البشر. وبكلمات " كتاب المساكين بالروح ". [الحب يجعل آلام الآخرين آلامه هو، ليس آلام واحد فقط بل آلام الجميع]. حينئذٍ يصير الألم خلاّقًا، والموت يصير استشهادًا حينما يكونان بدلاً عن الآخرين.

هذه الفكرة ــ فكرة المبادلة، أو التضامن في الألم، وأن يجعل الإنسان آلام الآخرين خاصة به، أو التألم لأجل الآخرين، هذا بالضبط هو ما فعله المسيح، والشهداء يستطيعون أن يفعلوا نفس الشيء لأنهم مقتنعون أن المسيح يتألم فيهم ويتألم معهم. وعندما نطبق امتحان الأب ألكسندر ألشانينوف لمعرفة الجامعية والشركة، فيمكننا أن نعرّف الشهيد بأنه جوهر الشخص الكنسي: ["*وإن تألم عضو فجميع الأعضاء تتألم معه* "(١كو١٢:٦) هذا قيل عن الكنيسة. فإن كنا لا نشعر هذا الشعور فنحن لا نكون داخل الكنيسة][10].

هذا التضامن يتم التعبير عنه بنوع خاص في صلاة الشهيد التشفعية. "*يا أبتاه اغفر لهم*"، هكذا صلى المسيح متشفعًا وهو مصلوب (لو٢٣:٣٤). وحينما جاء الجنود للقبض على القديس بوليكاربوس، وقف يصلى مدة ساعتين بلا انقطاع، " ذاكرًا بالاسم كل الذين سبق أن التقى بهم شيوخًا وشبابًا، مشهورين

[10] The Dairy of a Russian Priest, 124.

أو مجهولين، وكل الكنيسة الجامعة في العالم كله"[11]. وأحد الشهداء الجدد " أردن من تريبنزوند" الذي قُطعت رأسه سنة ١٦٥٠، "طلب الغفران من كل الذين قابلهم شبابًا وشيوخًا" وهو في طريقه إلى مكان قطع رأسه[12]، وآخر من هؤلاء الشهداء الجدد، ياكوفوس من أرتا، الذي شُنق سنة ١٥٢٠، أخبر رفيقيه قبل موته مباشرة أن يجثوا قائلاً: " فلنصلِ إلى المسيح لأجل العالم كله ولأجل الكنيسة"[13]. وبعد انتقال الشهيد فإن هذه الصلاة الشفاعية تستمر، ويصير لها داخل جماعة القديسين، مجالاً أوسع وقوة أكثر فاعلية.

وأحيانًا فإن التضامن يأخذ شكل مبادلة حقيقية كما حدث في حالة "الأم ماريا" في رافنزبروك، فقد وضعت نفسها محل امرأة شابة كان محكومًا عليها بالحرق في معسكرات النازي وبادلتها، فأنقذت المرأة وماتت هي عوضًا عنها. وحدثت مبادلة مشابهة في حالة الشهيد ينسيفوروس من القرن الثالث، الذي كان لقصته تأثير على "الأم ماريا" (في القرن العشرين). كان ينسيفوروس صديق العمر لكاهن يدعى سابريسبوس وتحطمت هذه الصداقة بسبب مشاجرة تافهة، ورغم كل محاولات ينسفوروس للتصالح مع سابريسيوس فقد أصر الأخير على

---

[11] استشهاد بوليكاربوس ١:٨.

[12] New Marterologion 72.

[13] New Marterologion 42.

رفض الصلح. وحينما جاء الاضطهاد، ارتد الكاهن سابريسيوس، ولكن ينسيفوروس صديقه الذي نال منه احتقارًا وإذلالاً، مات شهيدًا بدلاً منه ولأجله[١٤].

والتضامن، أو المشاركة المتبادلة، هو سمة بارزة أيضًا في الشهادة الاختيارية للحياة الرهبانية. فالراهب الذي يعيش مع جماعة، هو يشترك مع الآخرين في العمل اليومي والصلاة اليومية، والآخرون يشتركون معه في كل ما يقتنيه، وإضافة إلى ذلك فهو مدعو أن يعبّر عن هذا التضامن على مستوى أكثر عمقًا. وسمعان اللاهوتي الجديد ــ كما يخبرنا هو ــ كان يصلي إلى الله " بدموع حارقة وبكل نفسه" أن اخوته يدخلون السماء معه، وإلاّ، فليكن نصيبه معهم في جهنم: " ولأنه كان مرتبطًا بهم روحيًا بحب مقدس في الروح القدس، فإنه لم يرد أن يدخل ملكوت السموات ذاته إن كان دخوله هذا يعنى أنه سينفصل عنهم"[١٥].

وإذ يكون الراهب مرتبطًا بإخوته بهذه الطريقة، فإنه يأخذ ذنبهم على نفسه ويشترك معهم في توبتهم . ونجد في "أقوال آباء البرية" عددًا من القصص مثل القصة التالية:

[نزل اثنان من الاخوة ليبيعا عمل أيديهما. وفي المدينة

---

[14] Pearl of Great Price 15.

[15] Discourse8: 62-64, ed. Krivocheine, 2:90.

مضي كل منهما في طريق غير الآخر، وسقط أحدهما في الزنا. وبعد فترة قابله الأخ الآخر وقال: " هيا بنا نرجع إلى صومعتنا، يا أخي". ولكن الأول أجابه: "أنا لن أرجع"، فسأله الآخر: " لماذا لا ترجع يا أخي". أجاب: " حينما افترقنا عن بعضنا سقطت في الزنا". فالأخ الآخر إذ أراد أن يربحه بدأ يقول له: "وحينما تركتك حدث لي نفس الشيء أنا أيضًا. ولكن هيا بنا نصنع توبة قوية، والله سيغفر لنا". وهكذا رجعا كلاهما وأخبروا الشيوخ بما حدث لهما، ووضع الشيوخ عليهما قوانين للتوبة يمارسانها. وهكذا فإن الآخر قدم توبة عن أخيه كأنه هو نفسه قد أخطأ. وإذ رأي الله تعب محبته، فقد أعلن لأحد الشيوخ أنه بسبب محبة هذا الأخ الذي لم يخطئ، فقد غفر للأخ الذي أخطأ. هذا هو معنى أن يضع الواحد حياته عن أخيه].

والجملة الأخيرة لها مغزى خاص، إذ هي تُظهر بوضوح ارتباط التضامن بالشهادة.

وهناك راهب متوحد من القرن التاسع اسمه يوأنيكيوس الكبير سار إلى أبعد من ذلك، فقبل ليس فقط تأديب التوبة عن غيره بل حمل تجارب الآخرين على نفسه. قابل مرة راهبة شابة مجرّبة "بمحاربات شهوانية" فدعا الشابة إليه وأخبرها أن تضع يدها على عنقه. وحينما فعلت كما قال لها، صلّى أن تُرفع عنها المحاربات التي تزعجها وتسقط عليه هو. وهكذا

استراحت الراهبة من الحرب الشهوانية التي كانت تتعبها، وعادت لتعيش مع الراهبات كما كانت في السابق؛ ولكن المحاربات الشهوانية المرعبة هاجمت الشيخ القديس[١٦].

الفكرة الخاصة بأن المسيحي يمكن أن يحمل ثقل مخاوف ومحاربات أحد اخوته بطريقة واقعية ومحرّرة تشكل محورًا أساسيًا في رواية تشارلز وليامز " النزول إلى الجحيم". فنجد فيها أن "بولن انستروثر" تتحرر من القلق حينما تسمح لـــ "بيتر ستانهوب" أن يأخذ عنها ثقل قلقها الخفي، وبالعكس، فإن لورانس وينتورث يرفض "طريق التبادل" فينزل في عزلة متزايدة إلى الجحيم .

إن حمل أثقال الغير هو جانب أساسي في خدمة الأب الروحي أو الأم الروحية، كما تُفهم هذه الخدمة في الرهبنة الأرثوذكسية. فعند يوحنا الدرجي أو سمعان اللاهوتي الجديد، وكذلك عند الشيوخ الروحيين الروس في القرن التاسع عشر، المرشد الروحي ليس مجرد مشير يقدم نصائح متقطعة من على بُعد، وليس مجرد شخص يتلو تحليل الغفران بصورة قانونية ضيقة، بل هو أهم من كل شئ هو ضامن متكفل بأولاده الروحيين، يأخذ على عاتقه أثقال همومهم وأخطائهم، كمن يقدم حسابًا عنهم يوم الدينونة، وهو يوحّد نفسه بهم

[16] Symeon Metaphrastes, Life of St. Ioanikios14.

بالمحبة.

وكما قال القديس برصنوفيوس الغزاوي لتلاميذه: [إني اهتم بكم أكثر مما تهتمون بأنفسكم... يارب إما أن تأتي بأولادي معي إلى ملكوتك أو امحني من كتابك... لقد بسطت جناحي عليكم، وأنا أحمل أثقالكم وأخطاءكم... أنتم مثل إنسان جالس تحت شجرة ظليلة... وبكل سرور أبذل نفسي من أجلكم][17].

وكأيقونة للمسيح الراعي الصالح، فإن الأب الروحي يضع نفسه عن الخراف (يو ١٠: ١١). فالأبوة الروحية هي شكل من أشكال الشهادة.

مهمة عامة:
الشهادة ـ حمل الصليب

في حديثنا عن الشهادة تكلمنا ليس فقط عن الشهداء بالمعنى الخارجي الحرفي ــ أي الذين ماتوا لأجل المسيح في الاضطهادات ــ بل تكلمنا أيضًا عن آخرين، مثل الراهب والأب الروحي والأم الروحية، الذين شهادتهم داخلية وخفية: هذا أمر لابد منه، لأن الشهادة هي صفة شاملة للجميع، هي مهمة عامة للجميع.

فإن كانت الشهادة تعنى أن نحمل الصليب مع المسيح ــ نأخذ

[17] Questions and Answers ed. Schoinas, ii 39, 110, 239, 353.

الصليب بفعل قبول إرادي ــ وفي حملنا له، نوحد آلامنا مع آلام المسيح وآلام العالم كله ــ فعندئذٍ يكون هذا شئ ينبغي أن يقوم به كل مسيحي.

فالجميع هم حاملو صليب، الجميع، بمعنى ما، هم شهداء. فسواء دعينا لكي نموت خارجيًا لأجل المسيح في ساحة الاستشهاد، أو في غرف الغاز أو في معسكر السجن، فهذا يتوقف أساسًا على عوامل خارجة عن سيطرتنا، أي يتوقف على الوضع السياسي الذي نعيش تحت حكمه. ولكن ما يتوقف علينا مباشرة، هو **أن نحمل الصليب داخليًا.**

لقد أدركت الجماعة المسيحية الأولى أهمية الشهادة الداخلية، وعرفت قيمتها منذ البداية، يقول القديس بولس: "*إني أموت كل يوم*" (١كو١٥:١٣). فالشهادة، أي الموت لأجل المسيح، ليس مجرد احتمال قد يحدث في النهاية، بل هو حقيقة حاضرة في الاختبار اليومي. فالقديس اكليمندس الأسكندرى ــ في بداية القرن الثالث ــ يؤكد أن "الغنوسي الحقيقي" (أي العارف الحقيقي) يكون شهيدًا باستمرار وبدون انقطاع. إذ يقول: [هو يكون شهيدًا بالليل، وشهيدًا بالنهار، شهيدًا في كلامه، شهيدًا في حياته اليومية، شهيدًا في أخلاقه][18]. وأوريجينوس يعالج هذه النقطة في كتابه "الحث على الاستشهاد" فعندما كان شابًا رأي

[18] Miscell. 2.20.

والده يموت شهيدًا في الأسكندرية في اضطهادات سنة ٢٠٢م، وكان يشتهي بقوة أن يموت معه. وعندما مُنع من هذا، اتجه إلى حياة النُسك، واعتبر النُسك إعدادًا لدعوة الاستشهاد في المستقبل، كما تكون بدلاً من للاستشهاد لو لم تأت دعوة الاستشهاد فعلاً. وهو يميز بين "الاستشهاد الخارجي" و"الاستشهاد الخفي" أي استشهاد الضمير[١٩]. فالنوع الأول هو للبعض فقط، أما الثاني فهو للجميع.

القديس كبريانوس أسقف قرطاجنة في القرن الثالث يجعل التمييز بين النوعين أكثر وضوحًا إذ يتحدث عن شهادة "حمراء" وشهادة "بيضاء" ــ فالشهادة الحمراء هي بالدم في أوقات الاضطهاد، والشهادة البيضاء هي مشاعر التضحية بالذات وأعمال المحبة في أوقات السلام[٢٠].

وفكرة أوريجينوس الخاصة "بالاستشهاد الخفي" نجدها مُطبقة في الرهبنة المصرية في القرن الرابع. فحوالي سنة ٣١١ نجد القديس أنطونيوس "أب الرهبان" ينطلق من البرية إلى الأسكندرية أثناء اضطهاد مكسيمانوس لمساندة وتشجيع الشهداء في ضيقاتهم وآلامهم، وقد كان هو نفسه مستعدًا أن يتألم ويموت مثلهم. ولما انتهي الاضطهاد دون أن يُدعى للشهادة، فإنه يرجع إلى البرية ويزيد من حياة النُسك " محتملاً الآلام كل يوم كشهيد

[19] Exhortation to Martyrdom21.
[20] St. Cyprian, On works and almsgiving, 26.

في ضميره" بحسب تعبير القديس أثناسيوس الذي كتب سيرته[٢١].

وهناك قول انتشر بين الرهبان الأولين هو: " إعط دمك وخذ الروح": أي أن موهبة المُعزى تُقتني بواسطة شهادة الضمير أي بواسطة "الموت اليومي" في النُسك. يقول القديس برصنوفيوس: " أن تتخلى عن مشيئتك الذاتية فهذا معناه أنك تسفك دمك"، فكل قداسة تحتاج إلى استشهاد داخلي كما يؤكد ايفاغريوس البنطي. ففي وسط العالم المسيحي الذي لم يعد يتعرض للاضطهاد من الدولة صار الرهبان هم الشهداء.

ولكن الطريق النُسكي الخاص "بالاستشهاد الخفي" ليس مقصورًا فقط على الرهبان والراهبات. فالمؤمنون المتزوجون مدعوون أيضًا ليكونوا شهداء. فالحياة المشتركة بين الزوج والزوجة والأطفال تستلزم "التخلي عن المشيئة الذاتية" الذي يصفه القديس برصنوفيوس بأنه سفك دم. فالحب المتبادل رغم أنه مفرح ويحقق الذات إلاّ أنه يحتاج أيضًا إلى التضحية بالذات. كل هذا يصير واضحًا في صلاة الإكليل الأرثوذكسي للزواج. فصلوات الإكليل تتحدث عن الفرح ولكنه "فرح الصليب"، الفرح الذي شعرت به القديسة هيلانة حينما وجدت "الصليب الثمين". ووضع الأكاليل ــ التي هي غاية صلوات السر ــ على العريس والعروس، تُفهم على أنها شعارات

[٢١] حياة أنطونيوس بقلم أثناسيوس ٤٧.

الانتصار، مثل أكاليل الأبطال المُعدة للذين ينتصرون في كفاحهم ضد الشهوات الخاطئة. ولكنها تعني أيضًا في نفس الوقت أنها "أكاليل شهداء"، إذ بدون استشهاد داخلي بدون قبول إرادي للألم والمعاناة لا يمكن أن يُوجد زواج حقيقي. وفي الكنيسة الروسية يتقدم الكاهن العروسين في نهاية الصلاة وهو يحمل الصليب أمامهما، ويرتل الخورس ترتيلة تكريم للشهداء القديسين تقول: "أنتم الذين جاهدتم الجهاد الحسن ونلتم أكاليلكم".

إذن، فالأزواج والزوجات وكذلك الرهبان والراهبات هم جميعًا "**حاملو صليب**"، هم "**شهداء ضمير**". هكذا أيضًا العُزاب أي الذين يعيشون بمفردهم: أولئك الذين لم يختاروا البتولية بإرادتهم ورغبتهم، بل وجدوا أنفسهم عُزابًا بسبب أن فرصة الزواج لم تتم بالنسبة لهم. ويوجد عدد من هؤلاء في كنائسنا في العصر الحديث. والأرثوذكسية فيها كتابات كثيرة عن الحياة الرهبانية وكذلك عن الحياة الزوجية، ولكننا قليلاً ما نجد شيئًا عن العزوبية، فماذا نقول لهؤلاء الذين في الوضع الثالث.

يمكننا أن نبدأ بالتفكير في الوجهين اللذين يميزان الاستشهاد، الوجهان اللذان تحدثنا عنهما قبل ذلك وهما: "الموافقة الإرادية" و"التضامن أو المشاركة". فالرجل أو المرأة الذي يعيش بمفرده أو بمفردها، قد يكون لم يقرر هو في البداية عدم الزواج، ولكن إن كان هو أو هي يتعلم "داخليًا" أن يقبل هذا الوضع، فعندئذٍ يمكن أن يحدث أن ما كان يبدو أنه حرمان يتحول ويصير

تحقيقًا وإشباعًا، وبالمثل فالعزلة الظاهرية للشخص الأعزب يمكن أن تتحول إلى فرصة للمشاركة. فعدم وجود ارتباطات عائلية عند الأعزب يجعله أو يجعلها تتحول من خسارة حسب الظاهر إلى ربح، لو أن وقت الفراغ المتوفر لهما قد استُعمل في تعاطف ومشاركة عملية نحو الآخرين، أو أعمال خدمة شخصية أو عامة للجماعة. فيمكن تكوين دائرة واسعة من الأصدقاء ــ دون أن يعني هذا بالضرورة أنه "حياة اجتماعية" بالمعنى الدنيوي ــ وكذلك يمكن إعطاء اهتمام كبير وخاص للصلاة الشفاعية لأجل الآخرين، وهكذا فرغم ما يبدو أنه قليل وهو في عزلته، فإنه يكون كثيرًا بخدمته للآخرين.

قد يكون في هذا الأمر أحيانًا بعض الصعوبة والمرارة، ولكن ليس هناك شئ ذو قيمة يأتي بدون تعب وألم، كما ينبهنا القديس سيرافيم "بلا أحزان لا يوجد خلاص". ولكن يوجد فرق واضح بين الشهادة الحمراء والأنواع الأخرى من الشهادة، فالشهيد في الاضطهاد، يُدعى أن يقرر مرة واحدة ونهائية أن يقدم تضحية شاملة كاملة. أما شهيد الضمير سواء كان في الرهبنة أو الزواج أو العزوبية، فهو مدعو أن يعطي ذاته طوال الحياة، وإعطاء الحياة هذا ينبغي أن يتجدد باستمرار، فهو لا يقدم ذبيحة واحدة كبيرة، بل ذبائح صغيرة كثيرة. وبكلمات القديس ميثوديوس أسقف أوليمبوس، فإن "حياة البتولية هي

استشهاد ليس في لحظة قصيرة من الزمن، بل تمتد بطول الحياة". وكما يؤكد إنجيل القديس لوقا، ينبغي أن نحمل صليبنا كل يوم (انظر لو٩:٢٣).

قد يبدو الأمر بهذه الصورة مثبطًا للهمة، ولكن الموت كل يوم تصاحبه قيامة كل يوم. " شئ ما مات فيَّ " يعني أيضًا أن "شئ ما قد قام حيًا فيَّ". وبكلمات القديس بولس: "*كمائتون وها نحن نحيا.. كحزانى، ونحن دائمًا فرحون*" (٢كو٦:٩ــ١٠).

الحزن المُفرح:

هذا هو تأملنا الأخير. الشهيد هو شاهد ــ شاهد ليس فقط للصليب بل أيضًا للقيامة. الاستشهاد يتضمن ألمًا شديدًا جسديًا وذهنيًا، ومن نوع حاد جدًا، ومع ذلك فمعاناة الشهداء هي حُزن مُولّد للفرح للآخرين ولأنفسهم. فالذين عاينوا آلام الشهداء يخبروننا أن الشهيد يذهب لملاقاة الموت لا بوجه منقبض أو في حالة رعب، بل باشتياق وانتظار. فحينما حكم الوالي على القديس بوليكاربوس بالموت حرقًا، أجاب القديس: " لماذا تتأخر، افعل ما تريد"، وعندئذٍ تخبرنا سيرته أنه كان مملوءً بالشجاعة والفرح، ووجهه كان مملوءً بالنعمة[٢٢].

لذلك، فالكنيسة تبدأ الكثير من مدائحها للشهداء بكلمة: "**افرحوا**".

---

[22] Martyrdom of Polycarp 11. 2.

أيقونة الغلاف

استشهاد القديس أغناطيوس الأنطاكى

تصور الأيقونة القديس أغناطيوس "حامل الإله" أسقف إنطاكية" فى نهاية القرن الأول وبداية القرن الثانى، وهو من أبرز الآباء الرسوليين الذين تتلمذوا لرسل المسيح مباشرة. الأيقونة تصوره وهو مُلقى للوحوش الجائعة لكى تفترسه.

يقول القديس أغناطيوس وهو فى طريقه إلى ساحة الاستشهاد:

" إنى أموت بمحض اختيارى من أجل المسيح... أنا قمح الله أُطحن تحت أضراس الوحوش لأُخبَز خبزًا نقيًا للمسيح... وعندئذٍ أصبح تلميذًا ليسوع المسيح... أرجو أن تكون الوحوش واسطة لأكون قربانًا لله" (من رسالته إلى كنيسة رومية:٤).

فالاستشهاد لا يعنى مجرد الألم بل يعنى **تقديم الذات**.

الشهيد أو الشهيدة يقدم نفسه (أو نفسها) وبهذا يحوّل الموت إلى ذبيحة. لأن فعل " يذبح أو يقدم ذبيحة " يعنى بالضبط أن تقدس شيئًا بتقديمه إلى الله .

christianlib.com

إن كانت الشهادة تعنى أن نحمل الصليب مع المسيح - نأخذ الصليب بفعل قبول إرادى - وفى حملنا له ، نوّحِد آلامنا مع آلام المسيح وآلام العالم كله - فعندئذٍ يكون هذا شئ ينبغى أن يقوم به كل مسيحى .

فالجميع هم حاملو صليب ، الجميع ، بمعنى ما ، هم شهداء . فسواء دعينا لكى نموت خارجياً لأجل المسيح فى ساحة الاستشهاد ، أو فى غرف الغاز أو فى معسكرات السجن ، فهذا يتوقف أساساً على عوامل خارجة عن سيطرتنا ، أي يتوقف على الوضع السياسى الذى نعيش تحت حكمه . ولكن ما يتوقف علينا مباشرة ، هو أن نحمل الصليب داخلياً.

يُطلب هذا الكتاب من :
✝ المركز الأرثوذكسى للدراسات الآبائية ت: ٢٤١٤٠٢٣
✝ بيت التكريس ت : ٤٨٣٦٣٨٩ - ٦٧٤٥٢١٩
✝ ومن المكتبات والكنائس بالقاهرة والأقاليم .
سعر النسخة: ١ جنيه

coptic-books.blogspot.com

بذار الكنيسة
الاستشهاد دعوة للجميع

" أوقات السلام فرصة للشيطان، لأنها تسلب من المسيح شهادته وتسلب من الكنيسة مجدها " (بول أفدوكيموف)

انتصار الأرثوذكسية :

فى تقويم الكنيسة الأرثوذكسية[1]، توجد مناسبتان يحدث فيهما تركيز شديد الأهمية بشكل خاص على الاستشهاد؛ المناسبة الأولى هى "عيد انتصار الأرثوذكسية"، فى الأحد الأول فى الصوم الكبير[2]. هذا هو تذكار لانتهاء حرب الأيقونات سنة ٨٤٢ ــ ٨٤٣م. فى هذا اليوم تُحمل الأيقونات فى دورة احتفالية، وفيه يحرم الهراطقة، ويرتل تمجيد "تذكار أبدى" تكريمًا للذين دافعوا عن الإيمان بفرح وتعييد فى وسط الصوم. وفى "انتصار الأرثوذكسية" هذا يوجد ذكر خاص للآلام والجهادات التى احتملها القديسون، وإلى الاضطهادات، والتعذيب والنفى الذى واجهوه لأجل المسيح.

" أذكر يارب التعييرات والإهانات التى أصابت عبيدك...

وإلهنا يذكر الضيقات والتحقير الذى احتمله القديسون مع

---

[1] يقصد كنيسة الروم الأرثوذكس.

[2] بحسب ترتيب الطقس البيزنطى.

المسيح".

وهكذا فإن عيد "انتصار الأرثوذكسية" يصير عيدًا لتكريم الشهداء والمعترفين. إن "الانتصار الوحيد" الذي يمكن أو ينبغي للكنيسة على الأرض أن تتوقعه هو الاستشهاد.

ونفس هذه الحقيقة يتم التأكيد عليها فى "أحد جميع القديسين" الذى يقع فى الكنيسة الأرثوذكسية بعد أسبوع من عيد الخمسين. وهكذا ترى أن العيدين مرتبطان برباط وثيق. " فجميع القديسين " مخصص للنتائج التى يحققها حلول الروح القدس فى حياة الكنيسة. وأنه لأمر له مغزى أن الترانيم المحددة لعيد جميع القديسين، تشير بوضوح إلى الاستشهاد:

بدم شهدائك ، أيها المسيح إلهنا،
تتزين كنيستك فى كل العالم،
كما بالأرجوان والكتان الرقيق..

مثل باكورة ثمار الطبيعة نحو بستانى الخليقة
فإن الأرض المسكونة تقدم لك، يارب،
الشهداء حاملي الإله...

وهكذا فإن عيد " جميع القديسين " يبرهن فى الواقع أنه عيد "جميع الشهداء". **فالقديس الذى بلا منازع هو الشهيد.**